ومن المحتمل أن إيڤان سعى بذلك إلى تهيئة نفسه للزواج من الملكة البروتستانتية الكبيرة . فقد كان أرسل منذ بعض الوقت رسالة إلى الملكة إليزابيت مع التاجر جنكنسون يطلب من العاهلة الزواج لأنه مل من زوجته الشركسية ، والآن هو ينتظر الرد . وكان يستطيع بحرة قلم أن يجعل من روسيا بلدا بروتستنتيا وكان قادرا على ذلك .

وأجرى جنكنسون حديثا خاصا طويلا مع الملكة إليزابيت ، أما ما قاله وماقالته فليس مسجلاً في التاريخ . والرحالة الإنكليزي الذي كان على اطلاع واسع في الأمور التجارية بدا لسوء الحظ رسولاً حذراً جداً ومتروياً . واتضح من مراسلاته ومراسلات مرافقيه في السفر أن انكلترا كانت مهتمة بالتجارة مع روسيا وبالتجارة فحسب . ولم يكن اكتشاف روسيا وبخارى وأسواق الشرق ينطوي على أي عنصر من الفخار ، فالغاية كانت كسب المال لا القيام بالكشوف ، والتجارة تساوي اكثر من الحياة وأكثر من الشرف أيضاً . لقد كانت الملكة إليزابيت على رأس أمة تاجرة حتى ليمكن القول إنها كانت امراة اعمال مميزة وهذا ما اعطاها شعبيتها . ولم تكن الملكة تعيش عالة على بلدها وإنما كانت على العكس من ذلك تساعده على أن يصبح أكثر رخاء وثروة . وفيما يخص روسيا وضعت الملكة في أول مخططها وبصورة مطلقة مصالح الشركة الروسية . كان بإمكانها أن تسمي القيصر أخاها وأن تشرفه بكل القابه ويحمر وجهها أيضاً من البهجة لطلبة الزواج منها ، وهو أجدر بأن يكون منطرياً ملاطفاً من أن يكون عاهلاً كبيراً من الشرق يشبه المغول ، ولكن الأهمية الجدية كانت للتجارة . وكان جنكنسون قد حصل على امتيازات واسعة جداً للتجار الإنكليز في روسيا مما أثار غيرة زملائهم في الدول الأخرى مما أحرزته الشركة الروسية . ولو أن إليزابيت رفضت عرض إيڤان بصراحة لخاطرت عندئذ بكل شيء . وقد كان لها مسوغ للغضب ، ذلك لأن زوجة إيڤان كانت لاتزال على قيد الحياة والعرض لايختلف عما لو كان القيصر يدعوها للدخول في حريمه . ولكنها بدلاً من ذلك أخذت تغازله وتسعى لكسب الوقت . لم تكن